





الشيخ المغيلي ويهود توات
خلال القرن ١٥

د. المصري مبروك (*)

المقدمة :

الأمة الإسلامية أمة ولودة، لم تعرف العقم إلا فترة ضعف لا تخور للأمة ظهراً، ولا ترغم لها أنفاً، ولكنها سنة الله في خلقه تارة وتارة، ينسيها طول الأمد، ويذكرها القرآن ((وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ))(١) .

فلقد ولد رحم هذه الأمة سيد العالمين صلى الله عليه وسلم وولد أصحابه وأتباعهم وعقبهم الذي كانوا خير خلف لخير سلف، دأبهم إصلاح الأرض وإعمارها، وزرع الأخوة والمودة بين بني البشر، الناس عندهم سواسية، إلا من أراد بهم سوءاً، وكاد لهم كيداً فهم عندئذ الأبطال الأبرار، الذين يشمون رائحة الجنة من قبل عدوهم، لا يهنون ولا ينكسرون فالحياة بالكرامة أو الموت بالشهادة، إذا انهزموا أعدوا العدة وعاودوا الكرة، وإذا انتصروا عدلوا ولم يظلموا، وهكذا كان دأبهم منذ إقامة أول دولة لهم على بساط المعمورة،

(*) أستاذ محاضر جامعة أدرار – الجزائر .

(١) سورة الذاريات، الآية رقم ٥٥.

حيث اليهود والمشركون يعيشون معهم وهم جزء منهم، ولكن عندما يظهر الحسد بعد استتاره، والبغض بعد خفائه، والعداوة بعد تحين الفرص، يظهر اليهود أنيابهم، ويشهروا سلاحهم ويقطعون اليد التي امتدت لهم، ويزهقون الأنفس التي أحسنت إليهم، يقاتلون من وراء الستر ويشعلون نار الفتنة، حسداً من عند أنفسهم، يأتي الرجال ليردوا الأمور إلى نصابها، ويضعون حداً لحماقاتهم ويعيدون الكرة لتمكن الأمة وإخراجها من سكتتها لتعمر الأرض وتبني بالخير، وليعبد الرب سبحانه بما أراد، ويوقفون العدوان، ويضعون اليهود موضعهم، وهم يعلمون أنهم سيعيدون الكرة بعد تمكنهم، بل ويعلمون أنهم يخططون لذلك – فقد أخبرنا سبحانه وتعالى بدعواهم الباطلة ((نَحْنُ أَبْنَاء اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ))[٢] وقع ذلك كله، يحسنون إليهم إذا أمنوا ولا يستأصلونهم إذا قدروا عليهم وإنما يدفعون المنكر ، ويزيلون الضرر القائم، ولا يردون الضرر بضرر مثله بله الأشد منه، فما جاءوا إلا للإصلاح والإصلاح فقط .

وهذه الأيام التي تعيشها الأمة الإسلامية بالذلة وهم الإغراء، بالهوان وهم الشرفاء، ولكنها سنة الله في خلقه ((إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)) [٣] فلنذكر بالرحم الولود المعطاء ، ((وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)) [٤] .

---

[٢] سورة المائدة، الآية رقم ١٨.
[٣] سورة ، الآية رقم ١١.
[٤] سورة الذاريات، الآية رقم ٥٥.

وضع اليهود في المنطقة:

رأينا أن نذكر بهذه الحقائق من خلال رجل أنجبته رحم الإسلام عايش اليهود وعان منهم، فكان له معهم الموقف المذكّر، ولنذكر أيضاً أن هذه الرحم لا تنضب أبداً ومن هذه الرحم الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي(٥).

لقد رأى الصنيع المعهود من اليهود، في توات (٦) ، وأنهم إذا استمكنوا نقضوا العهود والمواثيق وصدق الله العظيم ((أوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم...)) (٧) .

فبعد ما طرد اليهود من الأندلس ومن صقلية نزلوا بجهة توات وبنوا كنيساً إعلاناً عن قوتهم التي تملكوها في المنطقة (٨) .

(٥) هو الشيخ العلم العلامة محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني التواتي البغدادي، يكنى بأبي عبد الله، عاش في القرن التاسع الهجري، ولد بتلمسان الجزائرية سنة ٧٩٠هـ ١٣٨٨م وتوفي سنة ٩٠٩ هـ ١٥٣٠ م جاب الصحراء ونشر الإسلام في غرب إفريقيا، الحركة الفكرية في عهد السعد بين لمحمد حجي – دار الغرب لبنان بيروت ١٩٨٦-٢٦٨ واحمد حمدي –محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية بتوات عصره وآثاره ص ٣٤ .

(٦) واحة من وحات الصحراء الجزائرية تقع بالجنوب الغربي تبعد عن العاصمة بحوالي ١٥٠٠ كم، تشتمل على ثلاثة أقاليم (قورارة –توات الوسطى – تيدكلت ، تحتل موقعاً أستراتجياً على أحد أهم الطرق التجارية الصحراوية، بها حدود مع جمهورية مالي يحي بوعزيز : أعلام الفكر والثقافة في الجزائر ، دار الغرب الإسلامي بيروت ص ١٤٤-١٤٦.

(٧) سورة البقرة الآية ١٠٠ .

(٨) مجمع محاضرات المهرجان الثقافي الثالث للتعريف بتاريخ منطقة توات الدراسات الإسلامية والعربية وإفريقيا – أدرار ٠٨/١١/ جمادي الثاني ١٤٠٨ هـ ٢٧-٣٠ جانفي ١٩٨٨ ، مقدمة الرد على المغتزلة ، وداد الألوري ص ١٣ فما بعدها .

بل لم يبنوا كنيساً واحداً وإنما بنوا بيعاً ولم يقفوا عند هذا الحد بل ذهبوا بعيداً بالاستيلاء على التجارة ثم على الأهالي بالتحكم فيهم ، ومعاملتهم بأخبث الطرق والوسائل.

فقد سُئل المغيلي ((ما تقولون في مسالة قبائل في آخر الصحراء حيث لا تنالهم أحكام الأمراء يتخذهم اليهود أخلاء ويلقبونهم بالخلائف فيأوونهم وينزلونهم في قصورهم ويجعلون الحوارير والسكة بأيديهم دون أمير يكون عليهم ، فيغشون المسلمين ويخونونهم ويحجرونهم شيئهم ويخدعونهم ومتى قام عليهم أحد من المسلمين كفته علائقهم عنهم وخاصمته دونهم حتى لا يتوصل إلى أخذ الحق منهم ... [9] فأجاب السائل في تسعة فصول

وفي رسالته إلى كل مسلم ومسلمة .

افتتحه أيضا ب ((فقد سألني بعض الأخيار عما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار وعما يلزم أهل الذمة من الجزية والصغار وعما عليه أكثر يهود هذا الزمان من التعدي والطغيان والتمرد على الأحكام الشرعية بتولية أرباب الشوكة أو خدمة السلطان فأقول والله المستعان)) [10].

ومن خلال هذين السؤالين يمكننا القول بأن اليهود الذين ساكنوا المسلمين بتوات قاموا بأفعال تخالف الأحكام الشرعية.

---

[9] اللوحة الأولى من المخطوط . ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار وما يلزم أهل الذمة من الجزية والصغار – الخزانة البكرية بتمنطيط.

[10] رسالة إلى كل مسلم ومسلمة اللوحة الأولى من المخطوط – الخزانة البكرية بتمنطيط .

استغلال الأهالي الذين أسكنوهم معهم في قصورهم لجهلهم فبدأوا يتحكمون في أرزاقهم وأحوالهم.

اتخذوا سكة غير سكة الأمير، بالاحتيال والنصب والنقص في الموازين، مستغلين تشتت الأهالي وبعدهم عن الأمير.

إخراج الأهالي عن طاعة الأمير، واحتكامهم إلى اليهود مما يكرس عملية الغش والاحتيال التي كانوا يمارسونها على الأهالي بحكم جهلهم.

محاولة إبعاد الأهالي عن المسلمين الوافدين الذين لديهم شيء من المعرفة حتى لا يتفطن الأهالي لمكر اليهود وغشهم وخداعهم لهم .

بل قد وصل الحد بالأهالي كما جاء في السؤال (... فإذا قيل لهم (للأهالي) إنكم أعنتم اليهود على التمرد ومنع الجزية وإذاية المسلمين، يقولون على هذا أدركنا ءآباءنا وعليه أدركت آباؤنا آباءهم ..) [11]، فقد اقتنعوا باليهود وبتصرفاتهم حتى أنهم أصبحوا يخشون من كساد أسواقهم إن هم قهروا اليهود.

ومما يذكره يحي بوعزيز " أن يهودياً ظل أربعين سنة يصلي إماما بالناس وكان يرش المسجد والمصلين بالبول حتى تمكن المغيلي من كشفه ولحقه حيث هرب وقتله.[12]

---

[11] اللوحة الأولى من المخطوط مايجب علىالمسلمين من اجتناب الكفار...المرجع السابق .
[12] يحي بوعزيز – أعلام الفكر والثقافة في الجزائر – دار الغرب الإسلامي – بيروت ١٥٠/٢ .

وهكذا ظهر نفوذ اليهود وأصبحوا يتحكمون في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، بل وصل بهم الحد إلى التلاعب بعقائد المسلمين ودينهم، وأعلنوا ذلك صراحة ببناء بيعهم وانتشارها، الشيء الذي حرك في المغيلي غيرته الإسلامية وبدأ حملته في تخليص المسلمين من تحكم اليهود، وردهم إلى أحكام الشريعة الإسلامية، وإلى جادة الصواب في الاحتكام إلى الأمير .

فالمغيلي رحمه الله تعالي : لم يثر ضد اليهود لأنهم بنوا بيعاً جديدة فقط كما يقول آدم عبد الله الألوري " تتسلل اليهود إلى قرية من قرى المسلمين في (توات) واستطاعوا أن يبنوا فيها كنيسة، فغار المغيلي لذلك وجعل يحرض المسلمين بالناحية على هدم تلك الكنيسة وقتال أولئك اليهود لأن البلد بلد إسلامي والناس كلهم مسلمون ...) [١٣] .

بل ما بنى اليهود بيعتهم بل بيعهم في المنطقة إلا بعد ما تحكموا في الأهالي وفي جميع مناحي الحياة فبنوا بيعهم إعلاناً للغلبة والظهور وخروجاً عن الأحكام الشرعية وحكم الأمير.

وقد ذهب رحمه الله تعالى إلى طرح المسألة على بساط التشاور والنظر فيها من خلال أقوال الفقهاء المعاصرين .

---

[١٣] آدم عبد الله الاولوري – الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرن الوسطى في نيجيريا ص ١٣ .

غيرة المغيلي على الإسلام :

ولا ينسى أن المغيلي رحمه الله تعالى عاش في عصر، أبرز سماته التي تميز بها، شيوخ التصوف وأدعياء الولاية وانتشار الشعوذة وتردي الفكر، وانتشرت الطرق والبدع والمنكرات والخرافات، فحاربهم وبين وجه الصواب في كل ذلك وألف كتابين في المسألة.

١ – تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين

٢ – فتح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب .. [١٤]

ومن ثم فإن غيرته على الإسلام والمسلمين لم تختص بتحريض الأهالي على اليهود وكسر بيعتهم ، بل امتدت إلى إصلاح الكل ولعل، خروجه من تلمسان وذهابه إلى الصحراء ما هو إلا جزء من هذه الغيرة الكبيرة والتي نحن اليوم في أمس الحاجة إليها .

فقد وصفه أحمد بابا التنبكتي " ... محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني خاتمة المحققين الإمام العلامة القدوة الصالح السني أحد الأذكياء ممن له بسطة في الفهم والتقدم متمكن المحبة في السنة وبغض أعداء الدين ..." [١٥]

وكما يقول الوزاني بصدق ((فإن اليهود لما طردوا من الأندلس ومن صقيلية نزلوا بجهة توات وبنوا كنيسة إعلاناً عن قوتهم التي تملكوها في

---

[١٤] احمد بن احمد شرشال - مجلة المرابطون -- تصدر في موريتانيا العدد الثالث السنة الثالثة ١٤١٦هـ ١٩٩٥م ص ٤٢ .

[١٥] احمد بابا التنبكتي – نيل الابتهاج بتطريز الديباج.كلية الدعوى الإسلامية – طرابلس ص ٥٧٦ .

المنطقة، حيث تفطن المغيلي لهذه الظاهرة السياسية الاقتصادية التي تكون خطراً على المجتمع الإسلامي فتصدى لها بعد استشارة بعض الفقهاء المشهورين في ذلك الزمان في تلمسان وفاس وتونس))[١٦]

المغيلي يتشاور مع العلماء:

فبعد أن عرض الأمر على قاضي توات الشيخ العصنوني [١٧] الذي خالف الشيخ المغيلي فيما يرى فراسل علماء تلمسان وفاس وتونس، ومن أبرز من راسلهم وأجابه على المسألة، أبو محمد الرصاع مفتي تونس ، وأبو مهدي الماوسي مفتي فاس ، وأحمد بن زكري مفتي تلمسان والحافظ التنسي المشهور فأجابوا بما يطمئن إليه قلبه .

ولعل أبلغ خطاب يؤيد المغيلي، ويبرز قمية ما رأى وما فعل ما كتبه السنوسي [١٨] (... بعد السلام عليكم ورحمة وبركاته: فقد بلغنا أيها السيد ما حملتكم عليه الغيرة الإيمانية والشجاعة العلمية من تغييركم أحداث اليهود- أذلهم الله تعالى وأخمد كفرهم – كنيسة في بلاد المسلمين ، وأنكم حرضتم أهل تمنطيط على هدمها، فتوقفوا من جهة من عارضكم في ذلك من أهل الأهواء،

---

(١٦) مجمع محاضرات المهرجان الثقافي الثالث للتعريف بتاريخ منطقة توات الدراسات الإسلامية والعربية وأفريقيا – ادرار ٨/١١/٠٨ جمادي الثاني ١٤٠٨ هـ ٢٧-٣٠ جانفي ١٩٨٨ ، مقدمة الرد على المغتزلة ، وآدم عبد الله الالورى ص ١٣ فما بعدها .

(١٧) الشيخ العصنوني من فقهاء توات كان قاضياً بتمنطيط، عاصر الشيخ المغيلي (القرن الخامس عشر للميلاد) .

(١٨) الشيخ السنوسي : هو الأمام محمد بن يوسف السنوسي صاحب العقائد الصغرى والكبرى (ق ١٥ م)

فبعثتم لذلك أسئلة تستنهضون بها من أهل الإيمان في المسألة، ولم يلتفت لأجل قوة إيمانه ونصوع إيقانه إلى ما يشير إليه الوهم الشيطاني من مراهنة بعض من تتقى شوكته ويخشى وقوع الحافظ المحقق أبي عبد الله التنسي جزاه الله خيراً...) [١٩].

وبهذا يتضح جليّاً أن الشيخ المغيلي رحمه الله تعالى ، إنما كان ناصحاً مؤيداً للحق مدافعاً عن حقوق المسلمين في ديارهم، إذ قد آووا اليهود وأسكنوهم معهم في قصورهم، ولكنهم سرعان ما انقلبوا عليهم وفعلوا ما قد قرأتم، لأن ظنهم أنهم أبناء الله وأحباؤه كما يزعمون وما في الأرض من رزق وخيرات فإنما هي لليهود على وجه الحق وإن كان في أيدي غيرهم فإنما هو مسلوب منهم، وحقهم أن يأخذوه بكل الوسائل ((قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)) [٢٠].

وهكذا أخرج المغيلي اليهود من تمنطيط ليرد النصاب إلى أهله.

تمكن اليهود ومحاربتهم للمغيلي:

ولكن مكر اليهود وخبثهم لم ينته عند هذا الحد، بل ازدادوا حقداً وبغضاً على الشيخ وأتباعه، فتحالفوا مع بعض القبائل مرة أخرى، وعاودوا الكرة، وبدأوا في اعتداءاتهم على المسلمين ونهبوا أموالهم عن طريق الفرق

[١٩] أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج مرجع سابق ص٥٧٦وءادم عبد الله الألوري مرجع سابق، ص١٤.

[٢٠] سورة آل عمران، الآية رقم ٧٥.

العسكرية التي كونوها، وقامت هذه الفرقة بنهب أموال ذرية العالم أبي يحي المنيلوى، وقتلوا العديد من أحفاده سنة ٨٩٦هـ ، ثم قتلوا ابن الشيخ المغيلي عبد الجبار [٢١] .

فحاربهم الشيخ المغيلي مرة أخرى، ولم يتمكن من غلبتهم نظراً للدعم الذي تلقوه من بعض القبائل، وحيث نشبت حرب بينه وبين قبيلة أولاد علي بن موسى ولم يكن فيها منتصراً وعاد إلى توات بما يسمى اليوم بزاوية الشيخ المغيلي حيث توافاه الله هناك سنة ٩٠٩هـ ١٥٠٣م ودفن بها رحمه الله تعالى .

التاريخ يعيد نفسه:

وهكذا يعيد التاريخ نفسه، ولكنا لا نستفيد من التاريخ، ألم يمد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ؟ وعايشهم ولكنهم غدروا به في غزوة الأحزاب وهم يعرفون جيداً أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد استقبلتهم توات في حضنها بعد ما جاءوا فراراً من القهر المسيحي الذي أصابهم في الأندلس، ولكنهم اليهود، تمسكنوا حتى تمكنوا، وعوضاً عن أن يردوا الجميل تناسوه وبدأوا يكيدون للأهالي ، ويغشون ويخدعون، حتى في عبادتهم تدخلوا ليفسدوها لهم حسداً من عند أنفسهم، ولما رأى المغيلي ما رآه من مكرهم وخداعهم وتلاعبهم بحياة الناس كان منه ما كان، ولكنهم اليهود، والتاريخ يعيد نفسه، ولكنا لا نستفيد من التاريخ، فعاودوا الكرة بدعم من بعض

[٢١] ـ محمد الطيب بن عبد الرحيم ـ القول البسيط في أخبار تمنطيط ـ ديوان المطبوعات (١٩٧٧) ص ٢٨.

القبائل ووقع القتال بسببهم ما بين الأهالي فحصل القتل ولم ينتصر إلا اليهود الذين استفادوا من لقاح مكرهم وخداعهم، وغفلة الأهالي وبعدهم عن دينهم، واليوم نعيش الحدث ذاته فجاء اليهود إلى فلسطين وبسطوا نفوذهم، وهاهم اليوم يتحدون كل العالم الإسلامي والعربي، يذبحون ويقتلون ويمكرون ، ولا حياة للعرب في قضيتهم الأولى (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)[٢٢] فهل من قارئ للتاريخ ؟ وهل من مستذكر؟ وفلسطين تستغيث . وشعبها المبعد والمهجر يستنصر وما النصر إلا من عند الله. والقدس الشريف ينادي والإسلاماه! وقضيته اليوم تنتظر غيرة كغيرة صلاح الدين، أو غيرة محمد بن عبد الكريم المغيلي.

---

[٢٢] سورة الذاريات، الآية رقم ٥٥.

الخاتمة :

وفي الختام : رحم الأمة الإسلامية ولود، وسيظل يلد الرجال الذين يقفون لليهود موقف المرشد للحيران، وموقف النافح عنهم بحق الإنسانية، وموقف واضع الحد لهم وردهم إلى الصواب، للتعايش في أمن وسلام، وقريباً يرفعون الراية البيضاء لصلاح الدين هذا الزمان.

المراجع :

٠١- الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا تأليف آدم عبد الله الألورى ط (١) ١٩٧٤.

٠٢- نيل الابتهاج بتطريز الديباج- أحمد بابا التنبكي – كلية الدعوى الإسلامية – طرابلس ليبيا.

٠٣- الحركة الفكرية في عهد السعديين لمحمد حجي – لبنان بيروت دار الغرب ط ١٩٨٦.

٠٤- محمد بن عبد الكريم المغيلي – رائد الحركة الفكرية بتوات رسالة ماجستير جامعة السانية وهران محمد حمدي.

٠٥- مجمع محاضرات المهرجان الثقافي الثالث –أدرار-٨-١١ جمادي الثانية ١٤٠٨ هـ -٢٧-٣٠- جانفي ١٩٨٨ م.

٠٦- أعلام الفكر والثقافة في الجزائر – يحي بوعزيز –دار الغرب بيروت .

٠٧- ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار، وما يلزم أهل الذمة من الجزية والصغار .

الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي – مخطوط بالخزانة البكرية بتمنطيط الجزائر.

٠٨- رسالة إلى كل مسلم ومسلمة – الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي ، مخطوط بالخزانة البكرية بتمنطيط الجزائر .

٠٩- مقال : دعوة الشيخ المغيلي في غرب إفريقيا – د. أحمد بن أحمد شرسال – مجلة المرابطون – تصدر عن معهد العلوم الإسلامية والعربية بموريتانيا العدد٣ -١٩٩٥ .